# الحد الفاصل

## بين أدب الروح وأدب المعدة

### للأستاذ محمود علي قراعة

قرأت لأستاذنا الدكتور زكي مبارك في العدد ٣٢٥ كلمة ذكر في آخرها آية كريمة وسألنا هل نعدها أدب معدة أم أدب روح. وهو بذلك يحاول أن يدخلنا في الميدان الذي دخل فيه متحدياً كل فكرة روحية، متهكماً على كل نزعة سماوية، مستنداً بذلك إلى مكانته الأدبية ولباقته وما أوتي من قوة غريبة على الدفاع عن القضايا الخاسرة. وهو لذلك يقف دائماً نصيراً لكل فكرة حسية ويقف نفسه موقف العداء لكثير من المعنويات وإن كان قلمه السيّال كثيراً ما يجرفه ويخرجه عن الحسيات إلى المعنويات والروحيات من غير أن يشعر. والحقيقة أن الدكتور زكي مبارك مشكلة لأنه خليط لم يمتزج بنسب معينة من القوى النفسية المختلفة، فتارة تراه الخير كله والإخلاص كله والوفاء كله، وآونة تجده يميل كل الميل إلى الخروج عما يتصل بالروح إلى النزول إلى ما يوثقه بكل أرضي وبكل نازع لحسي. وفي تاريخه أمثلة متضاربة لكل ما يمكن تصوره من الميل إلى أحد هذين الجانبين؛ فتارة تراه صوفياً مدروشاً، وأخرى تلفيه ساخراً بالحياة وعابثاً فيها. ولكن إذا كان أستاذنا الدكتور يرى لنفسه الحق في أن يتشكل كما يشاء وأن ينضم إلى الجانب الذي يريد، فلا أدري لماذا تراه متهكماً على كل فكرة روحية ومحارباً لكل النازعين إليها؟! كثيراً ما ردد في الرسالة كلمة أدب الروح وأدب المعدة، لا لأن الاصطلاح في ذاته غير موفق بل لأن أستاذنا أحمد أمين قد وضعه لتقويم الأدب وصحة تقديره. ولأستاذنا الدكتور الخيرة في أن يواصل حملاته على صديقه أو أن يقفها لأنه حر إذ لم يرد أن يسمع رجاء تلاميذه وإخوانه في أن النقد ممكن من غير خصومة كما فعل أستاذنا الدكتور عبد الوهاب عزام؛ ولكن الذي لا نقره ولا نستطيع السكوت عليه أن نغفل مناقشة ما يرد في حملاته مما عسى أن يمس الأدب في ذاته من قريب أو بعيد. فأستاذنا أحمد أمين يعني بأدب الروح الأدب الذي يتصل بالعواطف السامية عند الإنسان فيهذبها ويرقيها ويغذيها؛ ولذلك رأى أن القرآن أدب روح لأنه يسمو بالإنسان عن عالم المادة ويأخذ بيده إلى السماء لينظر إلى الأرض وما فيها نظرة تريه الحق حقاً والباطل باطلاً. ولكن أستاذنا الدكتور زكي مبارك تأبى عليه نزعته الحسية إلا أن يعارض هذا. ورأى أن أقرب مثل يؤيد وجهة نظره أن يذكر ما في القرآن من آيات تذكر وجود أشياء حسية في الجنة، مع أنه كان يجب على أستاذنا الدكتور أن يرى أن أقل ما يمكن تصوره في عالم سيخلو من البؤس والفقر والهرم، ولن تهيئ طبيعته المجال لظهور الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة وما يدخل تحت كل منها من فضائل إنسانية، أن ينعم الناس فيه بالاتحاد والمحبة فتتاح لهم أنواع المحبة من إلهية وصداقة أخوية، وفهم نزوع الأشياء المادية التي ستوجد هناك إلى التمتع بفكرتها الروحية، فما وجد من جميل صور من حور وولدان، نزع به إلى فكرة تقديس خالق هذه الصور، وما وجد من قصور وأنهار وفاكهة نزع به إلى النشوة الروحية من وجود هذه الأشياء، وأن ليس معنى هذا خلو الجنة من استلذاذ بالحور العين الاستلذاذ الحسي أو بما هنالك من مأكول ومشروب وحلى وحُلل، وبذا نضع الفكرة الروحية في درجتها العلوية ونجعل الحسيات في درجتها الثانوية، بل ونسمو بها إلى فهمها الفهم القريب من الروح. ونحن بذلك نسمو باللذة الممكن تصورها في الجنة من غير نكران لحسيتها بجعلنا الحسي تابعاً للروحي إذ أكثر جزئياته روحية. ولو تدبر الدكتور قوله تعالى في سورة السجدة: «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون» وقول النبي (ص) في حديث قدسي عن ربه تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» لوصل إلى أن المذكور في القرآن في سورتي الرحمن والواقعة وغيرهما وفي الأحاديث الصحيحة لا يفيد أن المذكور مذكور على سبيل الحصر بل على سبيل التمثيل لما سيوجد، ولعرف أننا وقد استبعدنا الأخذ بالنظرية التصويرية لمخالفتها لكثير من النصوص وما تحتمله قرائنها مثل الطمث للحور، لا نجد أمامنا إلا أحد أمرين: إما أن نأخذ بالنظرية الحسية أي بتغليب اللذات الحسية على الروحية، أو أن نأخذ بالنظرية الروحية التي تغلب اللذة الروحية على الحسية

فلو أخذنا بحسيتها تعليلياً ، لنزلنا بها ولشبهناها بلذة الدنيا المتواضعة فأخرجناها من سموها الذى يجب أن تكون فيه لتتلاءم مع نفوس أصحابها ، ولذا لم يكن بد من أن نأخذ بروحية اللذات تعليلياً . وعلى ذلك فذكر القرآن الكريم الأشياء المادية حتى على فرض الأخذ بالنظرية الحسية إطلاقاً لا يفيد أن القرآن أدب معدة وهو مملوء بما يفيد أن الجنة جزاء من عمل صالحاً وجزاء من اتقى .

وليتل دكتورنا إذا شاء قول الله تعالى « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلاً وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما ، درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيما » وقوله تعالى « فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وقوله «وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين» وقوله « كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين ، وما أدراك ما عليون ؟ كتاب مرقوم يشهده المقربون » وقوله « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » وقوله حكاية عن أولى الألباب من عباده قولهم « ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد[1] » وقوله : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً خالدين فيها[2] » وقوله : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم » وقوله : « إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق » وقوله : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين[1] »

فهذه الآيات الكريمة وأمثالها التى كثر ذكرها فى القرآن الكريم أكبر دليل على أن القرآن روحى لأنه جعل الجنة (حتى لو أخذنا بحسية اللذات إطلاقاً) جزاء المجاهدين والصالحين والمتقين والمؤمنين والمستغفرين ؛ أى جزاء من سمت روحه بالإيمان وزكى نفسه بالتقوى وكان روحانيا بالجهاد والعفو والصلاح

ويرى أستاذنا أحمد أمين أن باب الحماسة فى ديوان الحماسة مثلاً أدب روح لأنه صادر عن نفوس قوية، وباعث لمشاعر قوية ، وداع لمواجهة هذا العالم وما فيه بنفوس أبية ، فى غير خضوع ولا استخذاء ، فلم يعترض أستاذنا الدكتور زكى مبارك على هذا لأنه لا يستطيع مهما كان نصيراً للحسية أن يقول بغير هذا ، لذلك نجده بلباقة زكية مباركة قد أغفل ذكر الحماسة وتخطاها إلى ذكر الغزل والحب . فأستاذنا أحمد أمين يرى أن غزل جميل وكثير والعباس بن الأحنف ، أدب روح ، لأنه يصهر النفس ويطهرها ويجعل من آلامها وآمالها مبعثاً لفيض الحنان والرحمة والعطف على العالم وعلى الإنسانية كلها. وقال إن الغزل الفاجر أدب معدة وإن تعليل ذلك واضح بقليل من إعمال الفكر ، فأنى أستاذنا الدكتور زكى مبارك فى العدد ٣٢٢ من الرسالة يعارض هذه الفكرة بقوله : « . . . لا يمكن للمرأة أن تكون مصدر وحى وإلهام للرجل إلا إذا اشتهاها شهوة حسية ، ومن قال بغير ذلك فهو رجل ضعيف لا يدرك جوهر الصلات بين الرجال والنساء » ويقرر أن رجال الأخلاق لم يستنكروا الشهوات إلا بسبب الإسراف ؛ أما الشهوات فى حد ذاتها فهى من دلائل العافية ، وأن فضيلة العفاف لا يقام لها وزن إلا حين تصدر من رجال مزودين بحيوية الشهوات ، وأن للشهوة الحسية صلة بتفوق الرجال فى الميادين العقلية ، وهذا ليس مستبعداً من أستاذنا الدكتور الذى يعبر فى كل كتاباته عن ميله للحسيات

(١) والمعنى وآتنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك من دخول الجنة على تفسير ابن قيم الجوزية فى كتابه حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح ص ٦٧

(٢) والفردوس اسم يقال على جميع الجنة ، ويقال على أفضلها وأعلاها

(١) فأخبر أنه أعد الجنة للمتقين دون غيرهم

وهو بهذا ينصر أدب المعدة ؛ لأنه ينصر الحب الفاسد ويخذل أدب الروح ، لأنه يخذل الحب الروحي الذي يجمع بين قلبين ، ولكن الغريب مع هذا أن نجد لأستاذنا الدكتور بعض كتابات تجعله من أنصار أدب الروح فمثلاً وقد فتحت الآن كتابه «ذكريات باريس» قد صادفتني ص ١٣ وفيها يقول وصفاً لحسناء «هي فتاة ناهد حسناء رشيقة القد ، مشرقة الجبين ، في عينيها النجلاوين بقايا خطيرة من سحر هاروت وماروت ... وفي صوتها غُنَّة موسيقية ... ولأناملها رقة جذابة تفيض بالكهرباء ... وفي خطراتها تكسر وتثن ... ولها رفق بارع في إذكاء نار الحب والوجد فيمن تختار من أصحاب القلوب ... » فهذا الوصف من أدب الروح لأنه يعطي القارئ فكرة روحية عن حسناء زكي مبارك الجميلة. وكذلك أعد من أدب الروح مقالة الحب الأثيم في باريس ص ١٥ وما بعدها ، لأنه وإن حدث عما في حدائق باريس من عشاق متعانقين ومتعانقات فوق المقاعد مظللين بالأشجار المورقة ، فقد كتب مقاله ليقرر « أن الشاب الذي يحمله جنون الشباب على غشيان المواخير القذرة ثم يحمل مرضاً يعيا في برئه الأطباء » إنما يخدع نفسه بقوله إنها تجربة ، وإن كان قد أبى عليه حبه للحسيات إلا أن يجعل جزءاً منه أدب معدة بتقريره بوجود حب شريف غير الهوى العذري المعروف عند العرب « وهو الذي يجري بين فتى وفتاة أو رجل وامرأة لغرض غير مادي وتقع حوادثه في الأوساط المعروفة بالاستقامة وحسن السمعة ... ويستبيح أشنع الذنوب والآثام ولكنه مع ذلك يجري فيه الأرق وتسيل من أجله المدامع ، وتعرف فيه نكايات الوشاة والعذال ، وتتخذ من أجله الرسل ، وتدون له المكاتبات ... » ولعل الحد الفاصل بين الحب الروحي والحب الفاسد هو أن الصلة في الحب الروحي تصل بين روحين وقلبين ، كما رأينا في رفائيل لامارتين وتعريب أستاذنا أحمد حسن الزيات ؛ ففي ص ٨٢ تستنكر جوليا أن يتدلى الحب إلى اللذة الحسية الوضيعة ، أو يتدنى إلى الشهوة الدنسة الحقيرة لأنه إذ ذاك يفقد كبرياءه ونماءه وبقاءه . فيجيبها رافائيل في ص ٢٠٢ : بأن نار الحب القدسية قد أتت على هذه الشهوات الباطلة والنزعات السافلة فحولتها إلى لهب صاف كقلبها نقي كحبها . ولذلك لا أدري كيف يستنكر أستاذنا الدكتور أن يسمى ما يتصل بالروح كرواية رفائيل أدب روح ، وما يتصل بالجسد أدب معدة لأنه يتصل بالمعدة ؟ وكيف أجاز لنفسه أن يدعي أن القائلين بروحانية الأدب قد خلوا من الفتوة ، أو أن المرأة لا تلهم الرجل إلا باشتهائها حسياً ، أو بمعنى آخر إلا إذا كانت الصلة بينه وبينها بهيمية ، بمعنى أنها إذا كانت روحية بريئة لا تلهم على رأي الدكتور وفي هذا ما فيه من النزول بالصلات وما فيه من الإلغاء لشعور القلبي والقرب من البهيمة التي لا يهمها من الفحل إلا عملية التلقيح

ويقول أستاذنا أحمد أمين إن أدب الطبيعة أدب روح ، لأنه شعور بالجمال مجرداً عن الرغبة وتقدير للحسن منزها عن الأثرة ، ومزيج من شعور بجمال وجلال يحد من كبرياء الإنسان ، ونبل هذا الأدب إنما يرجع لنبل غرضه . وظاهر أن غرض المتغزل في الطبيعة التي خلقها الله ، هو التفكير في خلق الله ، وفي تقديس ما أوجده الله لنا من أشياء حسية تدل في خلقها ، وصوصنعها على جليل قدرته وعظيم قوته ، أي أن أستاذنا أحمد أمين يرى أدب الروح هو كل أدب انبعث عن عواطف نبيلة ويدفع إلى أعمال نبيلة ، ولا أظن أستاذنا الدكتور زكي مبارك يعترض اعتراضاً جدياً على هذه التسمية

أما أدب المعدة فيرى أستاذنا أحمد أمين أنه ذلك الأدب الذي يدور حول ملء المعدة واستدرار المال وتحصيل القوت ، ومثل لذلك بالغزل الفاجر ومقالات الكاتب التي باعثها الأول ملء الأعمدة والاستيلاء على الأجرة ، وأدب المديح ؛ وظاهر أن سبب هذه التسمية ضمة الأدب الذي يكون باعثه استدرار عطف من يغدق على المادح المال أو يفيده من الجاه ، وتفاهة الأدب الذي يكون باعثه الأول لا حب الأدب في ذاته أو الرغبة في البحث في ذاتها أو الاقتناع بفكرة بعينها ، بل لأنه مسوق إلى أن يكتب موضوعاً معيناً وإلى أن يصوغ فكرة معينة على أسلوب معين على قدر كذا من الأعمدة ليتقاضى كذا من الجنيهات ، وكذلك الغزل الوقح أو الوصف المكشوف لما ينزو بالرؤوس ويحرك الشهوات ، فلا ريب في أنه وضيع لاتصاله بالصنعة ، وعلى ذلك يمكن أن نجعل الغزل من أدب الروح إذا أخرجناه عن تحريك الشهوات وكان القصد منه الحديث عن صلة